الفصل السادس

فتح السودان (سنة ١٨٢٠-١٨٢٢م)

السودان جزء لا يتجزأ من مصر، والحدود الجغرافية والقومية لمصر تشمل وادي النيل من منبعه إلى مصبه، فمصر والسودان جزءان لا ينفصلان من وحدة سياسية واقتصادية لا تقبل التجزئة، تربطهما روابط الوطن والتاريخ واللغة والدين، وصلات الدم والنسب والمرافق المشتركة.

والسودان معدود منذ القرون الغابرة جزءًا من مصر، ولقد أثبت «ماسبرو» وغيره من المؤرخين ما بين مصر والسودان من الروابط التاريخية القديمة، وثبت من النقوش الهيروغليفية أن الملك «تحوتمس الأول» توغل حتى إلى منطقة البحيرات واحتل بعض النقط الحربية التي كانت على النهر[1]، وإذا كان السودان قد فصل عن مصر في بعض الأزمنة قديمًا أو حديثًا، فلم يكن ذلك إلا خروجًا على القاعدة الأزلية، وهي أنه جزء لا يتجزأ من مصر.

إن ارتباط مصر والسودان ضرورة حيوية لهما، وخاصة لمصر؛ فإنها تستمد حياتها من النيل، فهي هبة النيل -كما قال هيرودوت- أو كما يقول المعاصرون: مصر هي النيل، والنيل هو مصر، فلا تطمئن على حياتها إذا تملكت منابع النيل دولة أخرى، ولا يتحقق استقلال مصر التام إلا إذا شمل وادي النيل من منبعه إلى مصبه، وصارت هي والسودان وحدة سياسية تتألف منها الدولة المصرية المستقلة، ولا تمييز في ذلك لمصر على السودان في هذه الوحدة، فكلاهما جزء لا يتجزأ من هذا الوادي، وكلاهما يكمل الآخر ولا غنى له عنه، فمصر لا تستطيع أن تقف على قدميها منفصلة عن السودان، والسودان لا يستطيع أن يقف على قدميه منفصلًا عن مصر، وإذا انفصلا يفقد كل منهما كيانه ويصبح كلاهما إقليمًا تنقصه مشخصات الدولة ومقوماتها.

---

(١) شابي لونج بك: «مصر ومديرياتها المفقودة» ص٤٠.

هذه المبادئ وتلك الحقائق التي برهنت على صحتها عظات التاريخ على تعاقب العصور، ونطقت بها الحوادث السياسية في مدى المائة العام الأخيرة، قد عمل محمد علي باشا على تحقيقها، فلم يكد يوطد مركزه وينال الانتصارات العظيمة، التي فاز بها الجيش المصري في حرب الوهابيين حتى صحت عزيمته على فتح السودان ونشر علم مصر الخفاق في أصقاعه وربوعه.

إن فتح السودان هو ثالث الحروب التي خاضت مصر غمارها في عهد محمد علي لتأليف وحدتها السياسية، ولو لم تلح عليه تركيا في المبادرة إلى تجريد الجيوش على شبه جزيرة العرب، لكان فتح السودان أول حروبه بعد أن رد الغزوة الإنجليزية؛ لأن محمد علي لم يكن ليغفل عن أهمية السودان الحيوية لمصر، لكن الضرورات السياسية هي التي شغلته ردحًا من الزمن عن فتحه وجعلته يبدأ بحرب الوهابيين.

أسباب فتح السودان

يذكر المؤرخون بواعث وأسبابًا عدة لفتح السودان؛ فمنها رغبة محمد علي في اكتشاف مناجم الذهب والماس التي تناقل الناسُ أنها موجودة في أصقاع السودان، وخاصة في «سنار». ثم إمكان تجنيد السودانيين في الجيش المصري النظامي؛ لما اشتهر به الجنود السودانيون من الصبر والشجاعة والطاعة للرؤساء، ثم رغبته في التخلص من الفرق الباقية من عسكر الأرناءود وغيرهم من الجنود غير النظامية (الباشبوزق) ممن لم تهلكهم حروب جزيرة العرب، وعادوا إلى مصر وظلوا على ما جُبلوا عليه من النزوع إلى العصيان والتمرد والإخلال بالنظام، فرأى محمد علي تخلصًا منهم أن يجردهم على السودان، وخاصة لأنه شرع وقتئذ في تأسيس الجيش المصري النظامي كما سيجيء بيانه. ومن أغراضه أيضًا القضاء على البقية الباقية من المماليك الذين كانوا لاجئين إلى إقليم دنقلة، وهم على ما بلغوا إليه من الضعف كانوا مصدر قلق لمحمد علي، فاعتزم القضاء عليهم لكي لا يستردوا قوتهم يومًا ما ويزحفوا على مصر. وكان يرمي كذلك إلى توسيع مُلك مصر من الجنوب، واكتشاف منابع النيل، وإيجاد الروابط

الاقتصادية بين مصر والسودان، وتوسيع نطاق المعاملات التجارية بينهما؛ إذ لم يكن يقصد السودان من المشتغلين بالتجارة سوى فئة قليلة من التجار المخاطرين بأنفسهم من سكان الوجه القبلي، وكانت أسفارهم في الغالب عرضة للخطر، وتحولت معظم متاجر السودان إلى طريق سواكن ومصوع من ثغور البحر الأحمر، وكاد ينقطع ورودها إلى مصر، فرأى محمد علي أن يبسط نفوذ مصر في السودان لتكون طريقًا لمتاجرها، وأدرك أن في توسيع نطاق التجارة بين مصر والسودان فائدة لعمران البلدين وتنمية لما تجبيه الحكومة من المكوس على المتاجر فيزداد دخلها، ويعوِّضها بعض ما فقدته من الأموال والنفقات في الحرب الوهابية.

هذه هي الأسباب والبواعث التي يذكرها جمهور المؤرخين لفتح السودان، وكلها كما ترى أسباب صحيحة ووجيهة؛ ولكن يلوح لنا أن ضمان سلامة مصر وتأليف وحدتها السياسية والاطمئنان على منابع النيل كانت من أهم البواعث التي حفزت محمد علي إلى فتح السودان، فإن ما اشتهر به ذلك الرجل العبقري من بُعد النظر وصدق العزيمة لا بدَّ قد جعله يقدِّر أهمية السودان لمصر، ويدرك أن الاستقلال لا يتحقق إلا إذا تملكت مصر مجرى النيل من منبعه إلى مصبه.

قال في هذا الصدد «سدني بيل» أحد نبلاء الإنجليز في كتابه[1]: كانت العوامل التي حملت محمد علي أن يفتح السودان كثيرة؛ ولكنه من المعتقدين في فوائد الري ومنافعه، فيرجح كثيرًا أن الاطمئنان على سلامة النيل الأعلى أحد أغراضه.

ويقول «إبراهيم باشا فوزي» في كتابه: «قضى ساكن الجنان محمد علي باشا محي الديار المصرية لبانتين من فتح السودان، بل تخلص من ورطتين كبيرتين، فقد علمت من شيخ ذي منصب معاصر لمحمد علي باشا أن دولة أوربية كبيرة كانت تسعى لمعارضته باحتلال منابع النيل، فاهتم لهذا الخبر أكبر اهتمام واستشار كثيرًا من المهندسين الأوربيين الذين جاء بهم من بلادهم إلى القطر، فأقروا بالإجماع أن وقوع

(١) «ضبط النيل والسودان الحديث» ص١٤١.

منابع النيل تحت براثن هذه الدولة مما لا تحمد مغبته حيث تصير حياة مصر في يدها، فصمم على إنفاذ الحملة إلى السودان»[١].

وغير خاف أن تلك الدولة التي يشير إليها «فوزي باشا» في كتابه هي إنجلترا، فهي التي كانت تناوئ محمد علي وتدأب للسعي في احتلال مصر وبسط نفوذها عليها، وقد شرعت فعلًا في احتلالها سنة (١٨٠٧م) وجردت عليها حملة الجنرال «فريزر» كما تقدم بيانه في الفصل الثاني، وهزمت هذه الحملة في رشيد والحماد، مما اضطرها إلى الجلاء عن البلاد، فأرادت بعد ذلك أن تسيطر على مصر من الجنوب بعد أن أخفقت من الشمال.

ففتح السودان هو إذن حرب قومية بحتة، والغرض منها من أسمى أغراض الحروب وأنبلها قصدًا؛ إذ كانت الغاية منها تأليف وحدة وادي النيل. ولا يخفى أن مساحة السودان تزيد عن ضعف مساحة مصر؛ إذ إنه يبلغ مسطح القطر المصري مرتين ونصفًا، ومساحته تضاهي ربع مساحة القارة الأوربية، فبفتح السودان اتسعت رقعة الدولة المصرية فبلغت ثلاثة أمثال ما كانت عليه، ووصلت إلى معظم حدودها الطبيعية، فلا غرو أن نعد فتح السودان خير حروب مصر في عهد محمد علي.

وليس في فتح السودان أي غضاضة على أهله؛ فإن الحروب كثيرًا ما كانت دعامة للوحدة القومية، فقديمًا حاربت إنجلترا اسكتلندا، (الجزء الشمالي للجزيرة البريطانية) حروبًا متواصلة، وما زالت بها حتى أخضعتها وصارت جزءًا من المملكة البريطانية بعد أن كانت منفصلة عنها، ولم يقل أحد أن إنجلترا كانت باغية على اسكتلندا، ولا كانت هذه الحروب سببًا لدعاية انفصالية بين الاسكتلنديين بعد انضمامهم إلى حظيرة الوطن البريطاني؛ بل صاروا مواطنين بريطانيين مخلصين على تعاقب السنين لا يفكر واحد منهم في الانفصال عن وطنهم.

---

(١) كتاب «السودان بين يدي غردون وكتشنر» جزء١، ص٥٨.

وهل أتاك حديث الحرب الأهلية التي نشبت في الولايات المتحدة الأمريكية بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية في القرن التاسع عشر؟ إن سبب هذه الحرب أن ولايات الجنوب ظهرت فيها نزعة الانفصال عن ولايات الشمال، وأعلنت انفصالها عن حكومة الاتحاد الأمريكي، فحاربتها هذه حربًا استمرت أربع سنوات (من سنة ١٨٦١ إلى سنة ١٨٦٥م)، ولم تنته إلا بعد أن قهرت حكومة الاتحاد جيوش الولايات الجنوبية في معارك هائلة بلغت خسائر الفريقين فيها نيفًا وستمائة ألف نفس ماتوا قتلًا أو من الجروح والأمراض، وبذلك استقرت وحدة الولايات المتحدة وصارت أمة واحدة ودولة واحدة، ولم يقل أحد من سكان الجنوب أن تجريد الولايات الشمالية جيوشها على الولايات الجنوبية قد أذلها واستثار فيها نزعة الانفصال؛ بل بالعكس كانت هذه الحروب تأييدًا وتدعيمًا للوحدة الأمريكية، على ما كان بين الولايات الشمالية والجنوبية من الفوارق في الطبيعة والمناخ والأخلاق والعادات، والآن لا يفكر أحد من سكان الجنوب في تسويغ نزعة الانفصال التي جاشت بها وقتًا من نفوس أسلافهم، ولا يلوم أحد منهم حكومة الاتحاد على حرب كان الغرض منها تأييد الوحدة القومية التي هي أساس عظمة الولايات المتحدة.

فما يثيره بعض دعاة الانفصال من اتخاذ فتح السودان الأول، ثم الثاني ذريعة لبث دعايتهم تدحضه الشواهد التاريخية والنواميس الطبيعية، وهم بهذه الدعاية إنما يعملون بقصد أو بغير قصد على فصم عُرى الوحدة بين مصر والسودان، والتمكين للمطامع الاستعمارية من تحقيق أغراضها في وادي النيل، والحقيقة التي تخلص لك من تتبع الحوادث قديمها وحديثها أن لا أمن ولا استقلال لسكان الشمال والجنوب من أبناء وادي النيل إلا في ظل وحدة هذا الوادي العظيم.

اعتزم محمد علي إذن تجريد الحملة على السودان عقب انتهائه من حرب الوهابيين، وهذا يدلك على قوة إرادته ومضاء عزيمته ودأبه على توسيع ملك مصر؛ فإنه لم يكد ينتهي من تلك الحرب الشاقة ويبسط نفوذ مصر على جزيرة العرب حتى بادر إلى

خوض غمار حرب أخرى أعظم غاية، وأكثر منفعة، وأعود بالخير والرفاهية على مصر والسودان وعلى الحضارة والإنسانية، كانت حرب السودان على كثرة ضحاياها أقل مشقة وأقصر مدة من حرب الوهابيين، فقد كان الجيش المصري يواجه في جزيرة العرب قومًا مدربين على القتال، اشتهروا بشدة البأس وعاشوا للكر والفر، وهم فوق ذلك معتزون بانتصاراتهم على الحملات العثمانية من قبل، أمَّا الجيش الذي تحرك لفتح السودان فلم يلق أمامه سوى قوات مشتتة عزلاء لا سلاح معها إلا الرماح وما إليها من الأسلحة البائدة، وهي تجهل أساليب القتال وفنونه، ولم يلق الجيش المصري مقاومة تذكر إلا في بلاد الشايقية وهم قبائل يسكنون جنوبي دنقلة، وفي كردفان التي كانت تابعة لسلطنة دارفور، وفي مملكة سنار، والعقبة الكئود التي اعترضت الجيش المصري في فتح السودان هي الحميات والأمراض الوبيئة التي حصدت طوائف الجنود، فكانت أشد خطرًا على الجيش من القتال وخوض المعارك.

مقدمات الحملة

لجأ بقية المماليك بعد مذبحة القلعة إلى جنوبي النوبة فيما يلي شلال أسوان، واتخذوا مديرية دنقلة معقلًا لهم، فأوفد محمد علي إليهم بعض حاشيته تدعوهم إلى العودة إلى مصر والإقامة فيها على شروط أهمها ألا يستوطنوا المدن المصرية إلا بإذن منه، وأن يحضروا العاصمة يخفرهم بعض ضباطه حتى لا ينهبوا شيئًا من القرى والبلاد التي يمرون بها في طريقهم إلى القاهرة، وأن يتنازلوا عن امتيازاتهم القديمة ولا يطالبوا بما أخذ منهم بعد مذبحة القلعة.

كان محمد علي يدرك أن المماليك لا يقبلون هذه الشروط المهينة المذلة، وبذلك يجد المسوغ لتجريد الحملة للقضاء عليهم، وقد رفضوا فعلًا قبولها، وأخذوا يتوعدون بالدخول في حدود مصر، فلما جاء جوابهم محمد علي أمر من فوره بحشد جيش في مصر القديمة لفتح النوبة ودنقلة وعقد لواءه لثالث أنجاله «إسماعيل باشا».

وقبل أن يأمر بالزحف ذهب بنفسه إلى حدود مصر العليا في (سبتمبر سنة ١٨١٩م) يصحبه حسن باشا قائد الجنود الأرناءود ومحمد لاظ أوغلي (كتخدا بك) ووصل إلى ما وراء شلال أسوان ليرتاد تلك الجهات ويرتب مواقع جنوده ويرسم خطط الزحف، ثم عاد إلى الجيزة في (١٥ نوفمبر سنة ١٨١٩م)، وأخذ يتم معدات الحملة التي أعدها لفتح السودان.

معدات الحملة

تتألف الحملة عند بدء الزحف من (٤٠٠٠) مقاتل كما أحصاهم المسيو «فردريك كايو» العالم الفرنسي الذي صحب الحملة، وقد تلقى هذا الإحصاء من «عابدين بك» رئيس أركان حرب إسماعيل باشا، من هؤلاء (١٢٠٠) من الفرسان العثمانيين، و(٤٠٠) من فرسان العرب والمغاربة، و(٦٠٠) من المشاة، و(٣٠٠) من رجال المدفعية، و(٨٠٠) من المشاة العرب والمغاربة، و(٧٠٠) من عرب العبابدة، فيكون مجموعهم (٤٠٠٠)[١].

ثم تلقى إسماعيل باشا خلال الزحف مددًا من (١٤٠٠) مقاتل فبلغ الجيش (٥٤٠٠) مجهزين بأربعة وعشرين مدفعًا.

وأنفذ محمد علي جيشًا آخر بقيادة صهره «محمد بك الدفتردار» لفتح كردفان بلغ عدده (٤٠٠٠) جندي مجهزين بعشرة مدافع، فيكون مجموع الجيشين اللذين توليا فتح السودان نحو عشرة آلاف مقاتل.

وصحب الحملة ثلاثة من العلماء مهمتهم دعوة الأهلين في البلاد التي يبلغها الجيش إلى الدخول في الطاعة والاعتراف بسلطة الحكومة حقنًا للدماء، وهؤلاء العلماء هم «الشيخ محمد الأسيوطي الحنفي، والسيد أحمد البقلي الشافعي، والشيخ السلاوي المغربي».

(١) فردريك كايو، «رحلة في مروى والنيل الأبيض وفازوغلي» جزء٢، ص٥٠.

وصحب الحملة أيضًا بعد فتح دنقلة المسيو «فردريك كايو» Cailliaud المتقدم ذكره بقصد الاكتشاف والبحث عن مناجم الذهب، وله في رحلته بالسودان كتاب ضخم يعد من أهم مراجع فتح السودان(١).

احتشد الجيش في مصر القديمة حيث أعد محمد علي باشا ثلاثة آلاف مركب؛ لنقل الجنود والمهمات والذخائر والمؤن بطريق النيل، وأمر بإعداد نحو ثلاثة آلاف من الإبل في (إسنا) للسير منها برًّا، وسار في خدمة الحملة ألفان من الأتباع.

وقائع الحملة

ركب الجنود المشاة المراكب فانحدروا في النيل، وسار الفرسان ورجال المدفعية بالبر الغربي، وتقدمت الجيش طليعة مؤلفة من خمسمائة من الفرسان، وتحركت الحملة قاصدة حدود دنقلة.

وتحرك إسماعيل باشا وحاشيته في (٢٠ يولية سنة ١٨٢٠م) بعد سفر الحملة بيومين فبلغوا أسوان، والتقوا فيها ببقية الجنود الذين سبقوهم إليها، فأقاموا بها ريثما تجتاز المراكب الشلال الأول. ثم تقدموا جنوبًا، ففر المماليك الذين كانوا بالدر. ودانت البلاد لإسماعيل باشا.

فتح دنقلة

سارت الحملة من أسوان إلى (وادي حلفا) على ظهور المراكب، أما الفرسان فقطعوا المسافة برًّا في اثني عشر يومًا(٢)، وأقامت الحملة في (وادي حلفا) نحو عشرين يومًا حتى اجتازت المراكب الشلال الثاني، ثم زحفت على مديرية دنقلة فسرت من وادي حلفا إلى (سكوت)، ومن سكوت إلى (دنقلة)، ولم تلق مقاومة تذكر من المماليك، فقد استسلم بعضهم، ورحل البعض إلى (شندي) يريدون الالتجاء إلى

(١) «رحلة مروى والنيل الأبيض وفازوغلي» للمسيو «فردريك كايو» في خمسة أجزاء.

(٢) «كايو» الجزء الثاني، ص٥٢.

ملكها، ولكنه لم يقبل إيواءهم، فتشتتوا بين القبائل السودانية وسلبهم السودانيون أسلحتهم حتى انقطع دابرهم وقضى على البقية الباقية من المماليك.

وسلمت البلاد التي مر بها الجيش كسكوت و(المحس) و(ارقو)، فقدم أهلها وحكامها الطاعة، وكانوا يظنون أن الجيش المصري راجع إلى مصر بعد تشتيت شمل المماليك؛ إذ كان ظنهم أنه جاء لمحاربتهم، فلم يعدوا لمقاومته فانتهز هذه الفرصة واحتل بلاد دنقلة كلها.

معركة كورتى (٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠م)

ولما دخل الجيش بلاد (الشايقية) جنوبي دنقلة تجمعوا لقتال إسماعيل باشا بالقرب من (كورتى) الواقعة بالشاطئ الغربي للنيل، ولم يكن معه من الجنود سوى (٨٠٠) فارس. أمَّا بقية الحملة فقد أبطأ قدومها لتأخر المراكب في اجتياز الشلالات، فانقض الشايقية على رهط من رجاله وقتلوا منهم (٧٥) مقاتلًا، فاشتبك إسماعيل والشايقية في معركة دامت ثلاث ساعات (٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠م) انتهت بهزيمة الشايقية حيث فتكت بهم نيران البنادق، فقتل منهم نحو (٨٠٠) وقتل من جنود إسماعيل باشا نحو الثلاثين، وقد أبدى الشايقية بسالة كبرى في قتالهم، فأعجب بهم إسماعيل باشا، وعرض عليهم بعد انتهاء القتال أن ينتظموا في سلك الجيش المصري، فاستجابوا إلى طلبه، وبذلوا ولاءهم للحكم المصري وظلوا محافظين على عهدهم على مدى السنين.

ثم تقدم إسماعيل بعد المعركة وبلغ (كورتى) عاصمة الشايقية من أعمال مديرية دنقلة فأحرقها، وانتظر بها ريثما تكامل جيشه ثم استأنف الزحف في (٢١ فبراير سنة ١٨٢١)[1] مجتازًا صحراء (بيوضه) يصحبه الفرسان حتى بلغ النيل تجاه (بربر)،

(١) «كابو» جزء٢، ص٧٦.

وكانت الرحلة إليها شاقة منهكة للقوى، احتمل فيها الجند متاعب مضنية، أمَّا المشاة فقد ساروا حذاء النيل.

من بربر إلى أُم درمان

فتح الجيش المصري (بربر) في (١٠ مارس سنة ١٨٢١م)، وقدم ملكها نصر الدين خضوعه، فأقره إسماعيل على بلده، ثم (شندى) يوم ٨ بعد أن قدم ملكها الملك (نمر) ولاءه، وتابع الجيش زحفه جنوبًا إلى أن بلغ (حلفاية) الواقعية على مقربة من ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض فاحتلها، ثم احتل (أم درمان) الواقعة على النيل الأبيض، واجتاز الجنود النيل فبلغوا مكان مدينة الخرطوم[١] التي كانت قبل الفتح محلة صغيرة لا تحتوي أكثر من عشرة بيوت من الغاب، ثم أنشئت بها مدينة (الخرطوم) التي صارت عاصمة السودان ومبعث الحضارة والعمران في أنحائه.

وبعد أن وطد إسماعيل مركزه في الخرطوم ترك بها حامية عسكرية، وسار بباقي جيشه لإتمام فتح مملكة سنار[٢].

فتح سنار

ففتح مملكة (سنار) واحتل (ودمدنى) من أهم مدنها، وقدم ملكها الملك نادي ولاءه، ثم دخل إسماعيل (سنار) عاصمة المملكة في (١٢ يونية سنة ١٨٢١م)[٣] ودانت البلاد للحكم المصري من جنوبي وادي حلفا إلى سنار.

فتح كردفان

قلنا: إنَّ محمد علي عهد إلى صهره محمد بك الدفتردار فتح كردفان، وكانت تلك البلاد تابعة لسلطان دارفور، فبينما كان إسماعيل باشا يزحف على (سنار) سار جيش

(١) على بعد نحو (١٨٠٠) كيلومتر من أسوان مع حسبان تعاريج النيل.

(٢) كانت مملكة «سنار» تمتد من «بربر» شمالًا إلى «فازوغلي» جنوبًا.

(٣) «كايو» الجزء الثاني، ص٣٣٠.

الدفتردار إلى وجهته بطريق دنقلة وأبي قس، وكانت الرحلة إلى كردفان شاقة مهلكة للجنود؛ لأنهم ساروا سبعة أيام متوالية يقطعون الفيافي في صحراء لا ماء فيها ولا زرع.

والتقى الدفتردار بجيش نائب السلطان محمد الفضل سلطان دارفور فاشتبك الفريقان في واقعة دموية ببلدة (باره) شمالي الأبيض (إبريل سنة ١٨٢١م) انتهت بانتصار جيش الدفتردار واحتلال (الأبيض) عاصمة كردفان.

كانت معركة (باره) أشد معركة خاضها الجيش المصري في الفتح الأول، وقد أبدى فيها جيش كردفان شجاعة كبيرة، ولكن مدافع الجيش المصري غلبتهم على أمرهم، وحاول سلطان دارفور بعد المعركة أن يسترد كردفان وأغار عليها لكنه عاد خائبًا.

فتك الأمراض بالجنود

اعترض الجيش المصري في فتح السودان خصم لدود أشد وطأة من الحرب وأهوالها، وهو فتك الأمراض وانتشارها، وخاصة أمراض المناطق الحارة، ولم يكن يصحب الحملة إلا قليل من الأطباء خالين من الكفاءة، ففتكت الأمراض بالجنود واجتاحت عددًا عظيمًا منهم.

قال المسيو «كايو» الذي صحب الحملة في سنار[١]: إنَّ الجيش الذي سار به إسماعيل باشا لفتح البلاد الواقعة على النيل الأزرق مات منه لغاية (سبتمبر سنة ١٨٢١م) ستمائة مقاتل، ثم زاد عددهم إلى (١٥٠٠) في أكتوبر[٢]، وبلغ عدد مرضاه (٢٠٠٠) مريض، وكان عدد المرضى يزداد كل يوم، ولما ساءت حالة الجيش من هذه الناحية أرسل إسماعيل إلى أبيه يشكو إليه سوء الحال، قال: وكانت حالة الجنود من

(١) رحلة «كايو» جزء٢، ص٣١٣.

(٢) رحلة «كايو» جزء٢، ص٣١٧.

جهة المأكل والملبس وقلة العناية بهم تدعو إلى الإشفاق، فقد كانوا يأكلون نوعًا رديئًا من الذرة يضر بصحتهم، ثم إن ملابسهم بليت فلم يجدوا ما يقيهم جو تلك الأصقاع ورطوبتها وكثرة أمطارها، وكانوا إذا ناموا يفترشون الأرض فتصيبهم رطوبتها، ولم يكن بالجيش أطباء ولا أدوية، فكثر عدد المرضى وفشت العدوى واشتدت وطأة الأمراض بالجنود في سنار حتى لم يبق لدى إسماعيل باشا من العسكر الصالحين للخدمة سوى خمسمائة. وتبرم الجند بهذه الحالة وظهرت بين الأهلين بوادر الانتقاض وراجت الإشاعات السيئة عن حالة الجيش في سنار وكردفان، فأخذ إسماعيل باشا يمني الجنود بأن مراكب المئونة والعتاد قادمة عن قريب من جهة شندى.

مجيء إبراهيم باشا ثم عودته

بقي إسماعيل باشا متوقفًا عن الزحف قلقًا على مصير جيشه، إلى أن جاءه إبراهيم باشا بطل الحجاز[١] يصحبه بعض الأطباء لمكافحة الأمراض ومعه المئونة والملابس للجنود، فانتعش الجيش لقدومه، ودبت فيه روح الأمل والشجاعة، ولا غرو فإن قدوم بطل الحجاز وقاهر الوهابيين جدير بأن يرد إلى الجنود قوتهم المعنوية، وقد وزع المئونة والملابس على الجنود ودفع لهم رواتبهم المتأخرة وجاء على أثره مدد من الجند.

وأخذ إبراهيم باشا يدبر مع أخيه إسماعيل خطة فتح ما بقي من السودان، فاتفقا على اقتسام الزحف كل منهما في ناحية وتوزيع الجيش إلى فرقتين؛ فرقة بقيادة إسماعيل باشا لفتح البلاد الواقعة على النيل الأزرق لغاية إقليم فازوغلي[٢]، والأخرى بقيادة إبراهيم باشا ليخترق جزيرة سنار إلى بلاد الدنكا على النيل الأبيض ويمد فتوحات مصر إلى أعالي النيل.

---

(١) يوم (٢٢ أكتوبر سنة ١٨٢١م) كما يقول «كايو» جزء٢، ص٣١٨.

(٢) سمي باسم الجبل المعروف بجبل «فازوغلي» جنوبي سنار، ويقع على الشاطئ الغربي للنيل الأزرق، ويمتد حذاء النهر إلى بلدة «فامكة» التي أسسها محمد علي واتخذها عاصمة مديرية فازوغلي. أمَّا عاصمتها القديمة قبل الفتح فهي قرية صغيرة تدعى (فازوغلي).

فتح فازوغلي

وبعد أن تمت معدات الزحف تركا حامية من الجنود في سنار، واتخذ كل من الأميرين سبيله في الجهة التي اعتزم فتحها؛ ولكن إبراهيم باشا مرض بالدوزنتاريا أثناء الفتح، ولم يتجاوز في حملته جبل (القربين) في وسط الجزيرة، ثم عاد إلى سنار، ومنها إلى مصر.

ووصل إسماعيل باشا في زحفه إلى بلاد (فازوغلي) فدانت له (يناير سنة ١٨٢٢م) وقدم له ملكها (الملك حسن) ولاءه وخضوعه.

وقد تكبَّد الجيش متاعب هائلة في تلك الحملات البعيدة، ونالت منه الجهود والأوصاب، وبعث إسماعيل إلى أبيه يطلب الإذن له بالعودة إلى مصر؛ ولكنه أرسل يلومه على هذا الطلب وكلفه البقاء في السودان إلى أن يتم مهمته، وقد أذعن وبقي زمنًا يوطد دعائم السيادة المصرية في تلك الأصقاع، ثم أشفق محمد علي على صحة ابنه فأرسل يأذن له بالرجوع إلى مصر، ولكن هذا الإذن لم ينجه من الردى.

البحث عن مناجم الذهب

وبعد أن فتح إسماعيل باشا بلاد فازوغلي سار إلى جبل (بني شنقول) جنوبي فازوغلي للبحث عن مناجم الذهب يصحبه المسيو «كايو»، فحفر أماكن عدة؛ لكنه لم يعثر على ضالته ولم يكتشف إلا شذورًا قليلة من التبر، فقفل راجعًا إلى سنار.

وفي غيبته طارت إشاعات السوء عن جيشه، وأرجف المرجفون أن قد أحيط به وبرجاله فبدت بوادر التمرد في بعض البلاد، وقتل بعض الضباط في القرى، فاضطر إسماعيل أن يعود إلى سنار ليوطد سلطته بها (فبراير سنة ١٨٢٢م).

وفشت الحميات بين الجنود في (سنار) لكثرة هطول الأمطار، فانتقل بجنده إلى (ودمدنى) لاعتدال مناخها، وبنى بها قشلاقًا كبيرًا من الطوب بقيت آثاره إلى عصرنا الحاضر.

مقتل إسماعيل باشا

مكث إسماعيل زمنًا في (سنار) يدبر أمر الحكومة التي أسسها، ثم أرسل أفواجًا من الأسرى السودانيين يصحبهم رهط من الجنود إلى أسوان لتجنيدهم في الجيش المصري النظامي الذي كان محمد علي جادًّا في تأسيسه، واستعد هو أيضًا للعودة إلى مصر مصعدًا في النيل.

وعلم في غضون ذلك أن أهالي حلفاية وشندى وما حولها ثاروا في وجه السلطة المصرية، وكانت مساوئ الجنود وخاصة الأرناءود من أسباب هياج الأهلين وثورتهم، فاحتشد الثوار حول حلفاية وشندى وهجموا على قوافل الأرقاء السودانيين وانتزعوهم من أيدي الجنود الموكلين بهم، ورجعوا إلى شندى فرحين بهذا النصر المبين.

علم إسماعيل باشا بهذا النبأ، فقام من فوره قاصدًا (شندى) ومعه بقية الجيش، وكان الملك (نمر) ملك شندى هو المدبر لهذه الثورة، فجاء إسماعيل المدينة فجأة في (أواخر أكتوبر سنة ١٨٢٢م)، وأمر بإحضار ملك شندى أمامه، فلما مثل بين يديه أخذ يقرعه ويسرف في تأنيبه، ثم تمادى فلطمه على وجهه (بالشبك)، فلم يجب الملك على هذه الإهانة البالغة، ولكنه أسرَّها في نفسه وعزم على أن يغسلها بانتقام ذريع.

أمَّا إسماعيل باشا فقد عفا عنه مقابل غرامة مالية جسيمة يوفيها في خمسة أيام وألف من الرقيق، وأظهر الملك نمر الإذعان وقبل أن يحتمل الغرامة، ثم دعا إسماعيل باشا وبطانته إلى وليمة في قصره بشندى، وكان من القش، فأجابوا الدعوة وذهبوا إلى القصر واستووا فيه، ورحب بهم الملك ترحيبًا عظيمًا، وأمر أعوانه أن يجمعوا ما استطاعوا من الحطب والقش والتبن حول القصر بحجة العلف لخيل الباشا، ولم يدر بخلد الضيوف أن ثمة مؤامرة رهيبة تدبر لهم، فلما فرغوا من طعامهم وأكثروا من شراب (المريسة) أخذوا يتأهبون للعودة إلى معسكرهم، فإذا النار قد طارت في أكوام الحطب والقش المحيطة بالقصر، وإذا هي قد عمَّتها واندلعت فيما حولها، فجعلت

القصر شعلة من الجحيم، وحصرت النيران إسماعيل باشا وحاشيته فلم يستطيعوا الإفلات من هذا الحصار الجهنمي لهول النار المشتعلة ولإحاطة جنود الملك بهم يرمونهم بالنبل والسهام من كل ناحية؛ فسُدَّت المسالك في وجوههم حتى ماتوا عن آخرهم، ولم يستطع الجند نجدتهم إذ كانوا في معسكرهم بعيدين عن مكان المأساة، ولما وقعت الكارثة انقض عليهم رجال الملك نمر ففتكوا بهم، ولم ينج منهم إلا من هرب به العمر.

كانت هذه النازلة كارثةكبرى أثرت تأثيرًا سيئًا في مركز الجيش المصري، وتصدعت له هيبته، فإن مقتل قائد الجيش بهذه الطريقة الجهنمية من شأنه أن يبعث اليأس والرعب في نفوس الجنود.

فلما بلغ الخبر محمد علي باشا[1] حزن حزنًا شديدًا لقتل ابنه إسماعيل، وخاصة بعد أن فقد منذ أعوام معدودة ابنه طوسون. على أنه تلقى المصيبة بالجلد والصبر واعتزم المضي في سبيله.

وكان محمد بك الدفتردار وقت هذه الكارثة في كردفان، فلما جاءه نبؤها بادر من فوره بالزحف على شندى للثأر والتنكيل بمن اشتركوا في الواقعة، وقد خرب شندى، وأسرف في التنكيل والقسوة بما جعله مضرب الأمثال في الميل إلى القتل وسفك الدماء، وقتل آلافًا من الناس ليثأر لصهره، وسبى من الصبيان والنساء آلافًا أخرى أرسلهم إلى القاهرة، وتعقب الملك نمر لكنه لم يدركه لفراره إلى حدود الحبشة.

ما ذكره الجبرتي عن فتح السودان

دَوَّن الجبرتي في كتابه حوادث مصر لغاية سنة (١٨٢١م)، أي أنه أدرك ابتداء فتح السودان، وذكر عنه شذرات متفرقة خلال يومياته، تناول فيها الكلام عن مقدمات

(١) علم به في (٥ ديسمبر سنة ١٨٢٢م) كما ذكر ذلك «مانجان» جزء٢، ص٢٥٢ ويقول: إنَّ إسماعيل باشا لم يمت حرقًا بل قتلًا، وروايته لا تتفق مع معظم المراجع.

الحملة وبعض وقائعها، وانتهى إلى ذكر فتح سنار، وقد رأينا تقديرًا لهذا المرجع التاريخي القومي الجليل أن نورد هنا ما ذكره في هذا الصدد.

قال في حوادث ذي الحجة سنة ١٢٣٤هـ (سبتمبر سنة ١٨١٩م) ما يأتي:

«وفي منتصفه سافر الباشا (محمد علي) إلى الصعيد، وسافر صحبته حسن باشا طاهر ومحمد أغا لاظ (لاظ أوغلي) المنفصل عن الكتخدائية، وحسن أغا أزرجانلي وغيرهم من أعيان الدولة.

وهذه هي الرحلة التي سافر إليها محمد علي باشا قبل فتح السودان؛ ليرتاد حدود مصر ويرسم الخطط للزحف على النوبة ودنقلة».

وقال في حوادث محرم سنة ١٢٣٥هـ:

«وفي ٢٧ (١٥ نوفمبر سنة ١٨١٩م) حضر الباشا من الصعيد بعد أن وصل في سرحته إلى الشلال، وكان الناس تقولوا على ذهابه إلى قبلي أقاويل؛ منها أنه يريد التجريد على بواقي المصريين (المماليك) المنقطعين بدنقلة، فإنهم استفحل أمرهم، واستكثروا من شراء العبيد، وصنعوا البارود والمدافع وغير ذلك، ومنها أنه يريد التجريد أيضًا وأخذ بلاد دارفور والنوبة ويمهد طريق الوصول إليها، ومنها أنهم قالوا: إنه أظهر بتلك البلاد معدن الذهب والفضة والرصاص والزمرد، وأن ذهابه للكشف على ذلك وامتحانه وعمل معدله ومقدار ما يصرف عليه حتى يستخرج صافيه، وبطل كل ما توهموه وخمنوه برجوعه».

فالجبرتي في هذه النبذة يذكر عودة محمد علي من رحلته إلى أسوان، ويذكر أقاويل الناس في البواعث لهذه الرحلة، ومنها (أخذ بلاد دارفو والنوبة) أي فتح السودان، والبحث عن مناجم الذهب والمعادن الأخرى، ثم يقول: إن ما توهمه الناس وخمنوه بطل برجوعه، والواقع أن الجبرتي كان واهمًا فيما يقول؛ فإن محمد علي إنما رجع لتجهيز الحملة على السودان، وأن ما توهمه الناس كان صحيحًا.

ثم قال في حوادث ربيع الثاني سنة ١٢٣٥هـ (يناير سنة ١٨٢٠م): «في أوله عزل الباشا محمد بك الدفتردار عن إمارة الصعيد، وقلد عوضه أحمد باشا بن طاهر باشا وسافر في خامسه».

ويلوح لنا أن لهذا النبأ علاقة بفتح السودان؛ لأن محمد علي فصل الدفتردار عن حكم الصعيد لينضم إلى الحملة ويعاون إسماعيل باشا في فتح السودان.

وقال عن تعيين إسماعيل بن محمد علي لقيادة الحملة وتجهيز معداتها:

«وفيه جمادى الأولى سنة ١٢٣٥هـ، فبراير سنة ١٨٢٠م) قوي عزم الباشا على الإغارة على السودان؛ فمن قائل: إنه متوجه إلى سنار، ومن قائل: إلى دارفور، وصاري العسكر (القائد العام) ابنه إسماعيل باشا وخلافه، ووجه الكثير من اللوازم إلى الجهة القبلية، وعمل البقسماط والذخيرة ببلاد قبلي والشرقية، واهتم اهتمامًا عظيمًا، وأرسل أيضًا بإحضار مشايخ العربان والقبائل».

نقول: واستدعاء المشايخ والقبائل كان الغرض منه تجنيد العربان في الحملة، ومن المعلوم أنها كانت تضم في صفوفها كثيرًا من فرسان العرب المصريين كما ذكرناه آنفًا.

وقال في حوادث رجب سنة ١٢٣٥هـ (إبريل سنة ١٨٢٠م): «وفي عشرينه سافر محمد أغا لاظ (لاظ أوغلي) وهو المنفصل عن الكتخدائية إلى قبلي؛ بمعنى أنه في مقدمة الجردة يتقدمها إلى الشلال».

ثم قال في حوادث رمضان ١٢٣٥هـ (يونية سنة ١٨٢٠م): «واستهل شهر رمضان بيوم الإثنين والاهتمام حاصل، وكل قليل يخرج عساكر ومغاربة مسافرين إلى بلاد السودان، ومن جملة الطلب ثلاثة من طلبة العلم يذهبون صحبة التجريدة، فوقع الاختيار على محمد أفندي الأسيوطي قاضي أسيوط، والسيد أحمد البقلي الشافعيين والشيخ أحمد السلاوي المغربي المالكي».

وقال عن تشتيت شمل المماليك في دنقلة وتسليم بعضهم:

«وفي هذا الشهر (شوال سنة ١٢٣٥- يولية سنة ١٨٢٠م) حضرت طائفة من بواقي الأمراء المصريين (المماليك) من دنقلة إلى بر الجيزة، وهم نحو الخمسة وعشرين شخصًا، وملابسهم قمصان بيض لا غير. فأقاموا في خيمة ينتظرون الإذن، وقد تقدم الإرسال بطلب الأمان عندما بلغهم خروج التجاريد، وحضر ابن علي بك أيوب وطلب أمانًا لأبيه، فأجيبوا إلى ذلك وأرسل لهم أمانًا لأجمعهم ما عدا عبد الرحمن بك الذي يقال له المنفوخ، فلا يعطيهم أمانًا، لما حضرت مراسلة الأمان لعلي بك أيوب وتأهب للرحيل حقدوا عليه (أي المماليك) وقتلوه».

وقال أيضًا في هذا الصدد: «في أوائل ربيع الأول سنة ١٢٣٦هـ (ديسمبر سنة ١٨٢٠م) حضر نحو العشرة أشخاص من الأمراء المصرية (المماليك) البواقي في حالة رثة وضعف وضيم واحتياج، وكانوا أرسلوا وطلبوا الأمان فأجيبوا لذلك».

وقال: «وفي أواخر رجب سنة ١٢٣٦هـ (إبريل سنة ١٨٢١م) حضر جماعة من المماليك المصرية الذين كانوا بدنقلة فيهم ثلاثة سناجق أحدهم أحمد بك الألفي زوج عديلة هانم بنت إبراهيم بك الكبير».

وقال عن سفر إسماعيل باشا قائد الحملة ومحمد بك الدفتردار ثم إبراهيم باشا: «وفيه (ذي القعدة سنة ١٢٣٥هـ، أغسطس سنة ١٨٢٠م) سافر إسماعيل باشا إلى جهة قبلي، وهو أمير العسكر المعين لبلاد النوبة، كل ذلك والباشا الكبير (محمد علي باشا) على حاله بالإسكندرية».

«وفي ١٧ رجب سنة ١٢٣٦هـ (إبريل سنة ١٨٢١م) ارتحل محمد بك الدفتردار مسافرًا إلى دارفور ببلاد السودان بعد أن تقدم طوائف كثيرة عساكر أتراك ومغاربة».

وذكر عن سفر إبراهيم باشا في حوادث ذي القعدة سنة ١٢٣٦هـ (أغسطس سنة ١٨٢١م):

«وبعد سفر الباشا إلى الإسكندرية سافر أيضًا إبراهيم باشا إلى ناحية قبلي قاصدًا بلاد النوبة».

وقال عن وقائع الحملة:

«واستهل شهر ذي الحجة سنة ١٢٣٦هـ (٣٠ أغسطس سنة ١٨٢١م) وفيه خرجت عساكر كثيرة ومعهم رؤساؤهم وفيهم محو بك ومغاربة وآلات الحرب كالمدافع وجبخانات البارود واللغمجية وجميع اللوازم قاصدين بلاد النوبة وما جاورها من بلاد السودان، وفيه سافر محمد كتخدا لاظ (لاظ أوغلي) المنفصل عن الكتخدائية إلى إسنا ليتلقى القادمين ويشيع الذاهبين، وفيه وصلت بشائر من جهة قبلي باستيلاء إسماعيل باشا على سنار بغير حرب ودخول أهلها تحت الطاعة، فضربت لتلك الأخبار مدافع من القلعة».

نظام الحكم في السودان

جعل محمد علي باشا على السودان حاكمًا يسمى (حكمدار السودان) يجمع في يده السلطة العسكرية والمدنية، ويرجع في إدارته إلى ديوان (وزارة) الداخلية بمصر. ولبعد المسافة بين البلدين وصعوبة المواصلات كان لحكمدار السودان سلطة مطلقة في إدارته، وجعلت مدينة الخرطوم التي أنشئت في عهده عاصمة السودان ومقر الحاكم العام؛ ومع الزمن قسمت البلاد إلى مديريات لكل منها مدير يحكمها تحت إدارة حكمدار السودان ويتولى قيادة الجند فيها، وقسمت المديريات إلى أقسام، لكل قسم ناظر، وكانت الإدارة تتبع نظام الإدارة المصرية، وصار عدد المديريات في أوخر عهد محمد علي سبعًا، وهي دنقلة، وبربر، والخرطوم، وكردفان، وكسلة، وسنار، وفازوغلي.

وجعل لكل مدير وكيلًا ومعاونين وكتابًا، وبجانبه القاضي والمفتي ومجلس أهلي وضبطية، وأبقى حكام البلاد الأقدمين من الأهلين في مراكزهم كمشايخ النوبة ودنقلة وبربر والحلفاية والرصيرص وفازوغلي، وملك سنار.

وكان المديرون ومن إليهم من الموظفين تحت رقابة الحكمدار (الحاكم العام)، ومما لا نزاع فيه أن كثيرًا من أولئك الموظفين كانوا ينزعون إلى الظلم والعسف، مما

أدى إلى تبرم الأهلين، وقد ظهر عسفهم على الأخص في حمايتهم لتجار الرقيق الذين كانوا ينتزعون الأهلين من قراهم ويبيعونهم في أسواق النخاسة.

الجيش المصري بالسودان

يقول المسيو «دارنوا» المهندس الفرنسي الذي أقام بالسودان (من سنة ١٨٣٨م إلى سنة ١٨٤٢م): إنَّ الجيش المصري المرابط هناك كان يبلغ (سنة ١٨٣٨م) ٦٨٠٠ جندي؛ منهم ٦٠٠٠ من الجنود النظامية يتألف منهم الأيان، و٤٠٠ من الشايقية من سكان البلاد المعروفة باسمهم و٤٠٠ من المغاربة.

وقد زاد بعد تلك السنة حتى بلغ (١٨٠٠٠) إحصاؤهم كما يأتي:

١٦٠٠٠ خمس الأيات من الجنود النظامية المصرية

١٠٠٠ فرسان من الترك

٤٠٠ مغاربة

٤٠٠ شايقية من أهل البلاد

٢٠٠ مدفعية

١٨٠٠٠ المجموع

ويقول الدكتور «بيرون» Berron: إنَّ الجيش المرابط بالسودان سنة (١٨٤٣م) بلغ خمس الأيات، كل الأي مؤلف من (٣٠٠٠) مقاتل، أي أن عددهم (١٥٠٠٠)، وهو قريب من إحصاء المسيو «دارنو».

وكانت وحدات الجيش المصري موزعة على العواصم والمدن المهمة مثل: الخرطوم والأبيض وبارة وود مدني وسنار وكسلا.

وقد دخل في هذا الجيش عدد كبير من السودانيين أخذ يزداد مع الزمن، وأثبتت التجارب كفايتهم وولاءهم وحسن أدائهم للخدمة العسكرية، وصار السودانيون

ينتظمون في الجيش المصري كالمصريين، تظلهم راية واحدة هي الراية المصرية، ويدينون بالولاء لدولة واحدة هي الدولة المصرية.

حكمدارو السودان في عهد محمد علي

بقي «محمد بك الدفتردار» بعد مقتل إسماعيل باشا يتولى حكم السودان، إلى أن جاءه الأمر فرجع إلى مصر، وتعاقب بعده الحكمدارون الذين عهد إليهم محمد علي حكم تلك البلاد، واستمر ولاة السودان (الحكمدارون) في عهده وعهد خلفائه يتولون حكمه على اعتبار أنه جزء لا يتجزأ من مصر إلى أن فصلته عنها السياية الاستعمارية الإنجليزية سنة (١٨٨٤م) بعد شبوب الثورة المهدية.

عثمان بك

ففي سنة (١٨٢٣م)[١] جعل لأميرالاي عثمان بك حكمدارًا للسودان، ولم يكن عهده عهد إصلاح وعمران، فإنه عسف الأهلين بما فرضه عليهم من الضرائب الفادحة، وجرد عليهم الجنود لجبايتها، فأسرفوا في القسوة والقتل والتنكيل مما أدى إلى هجرة الكثير من الأهلين ونقص عدد السكان، ومات «عثمان بك» قبل أن تمضي على ولايته سنتان، فكان عهده وعهد الدفتردار من أسوأ أزمنة الحكم في السودان.

محو بك

وأقيم في مكانة محو بك، فكان عادلًا رحيمًا، أحسن السيرة بين الأهلين، وكف اعتداء الجنود عليهم، وحبب فيه مشايخ البلاد وأهلها لما اشتهر عنه من العدل، وبنى بالخرطوم ثكنة لإقامة الجنود، واحتفر في الطرق البعيدة عن النيل آبارًا يستقي منها الناس والقوافل تعرف إلى عصرنا الحاضر بآبار محو بك[٢].

---

(١) اعتمدنا في بيان هذه السنة على ما ذكره اللواء المصري «محمد مختار باشا» في كتابه «التوفيقات الإلهامية» ص٦١٩، مع مقارنته بما ورد في «الوقائع المصرية» عدد (١٢).

(٢) «السودان بين يدي غردون وكتشنر» لـ«إبراهيم باشا فوزي» الجزء الأول، ص٦٥.

خورشد باشا

هو أعظم ولاة السودان شأنًا، وأنبههم ذِكرًا، وأحسنهم سيرة، وأطولهم عَهدًا، خلف «محو بك» في ولاية السودان سنة (١٨٢٦م)، فسار سيرة عدل واستقامة وعنى بإصلاح ما أفسده الدفتردار وعثمان بك، فبذل همَّة في تعمير البلاد وتأمين الأهالي على أموالهم وأرواحهم، وأذاع منشورًا بالأمان إلى الفارين الذين هاجروا إلى دارفور وجبال النوبة، فعادوا واطمأن الأهلون إلى حكمه، وعمَّر مدينة الخرطوم كما سيجيء بيانه، وهو الذي أدخل في السودان صناعة بناء الدور بالطوب بعد أن كان الأهالي يقيمونها بالغاب والجلود، وقد أمدهم بالطوب والأخشاب والألواح تيسيرًا عليهم وترغيبًا لهم في العمران، ونظم الدواوين، ووطد الأمن في البلاد وأنشأ مسجدًا في الخرطوم وآخر في سنار، وعنى بالزراعة، وطلب من محمد علي مساعدته في أسبابها، فأرسل إليه طائفة من المزارعين المصريين منهم بعض مشايخ البلاد وبعض (الخولة) لتمرين الأهالي على الزراعة.

وقد وسع فتوحات مصر فاحتل (القلابات) شرقي السودان، وكان موقعها هامًّا من الوجهة الحربية والاقتصادية؛ لوقوعها بالقرب من حدود الحبشة، فجعل بها حامية عسكرية ثابتة، وأخضع جبال قلى وغزا قبائل الشلك وقبائل سبدرات.

وقد أثنى عليه محمد علي وأنعم عليه برتبة الباشوية سنة (١٨٣٥م) جزاء ما بذله من الهمَّة في تنظيم شئون السودان، وبقي في منصبه إلى سنة (١٨٣٧م) حيث اعتزله وخلفه «أحمد باشا أبو ودان».

أحمد باشا أبو ودان

حذا «أحمد باشا أبو ودان» حذو خورشد باشا؛ فأحسن السيرة بين الأهالي، وحبب فيه الأمراء ورؤساء القبائل من السودانيين، وأتم عمل خورشد باشا في تعمير مدينة الخرطوم وتنظيم المديريات، وضم إليها العرب الرحل الضاربين في أوديتها، وبذلك انتظمت إدارتها، وجلب من مصر كثيرًا من الحيوانات المستأنسة والنباتات

النافعة وبذورها؛ فتحسنت الزراعة وارتقت شئونها ونشطت الصناعة في (ترسانة) الخرطوم، واستكثر من السفن الأميرية في النيل، وزاد من طرق المواصلات؛ فاتسعت حركة التجارة والمعاملات بين مصر والسودان والبلاد القاصية من أواسط إفريقية، وصارت الخرطوم ملتقى المتاجر، وكثر ورود التبر وريش النعام والعاج والصمغ إليها. وفي عهده فتح إقليم التاكا (كسلا) الواقع بين نهر عطبرة والبحر الأحمر سنة (١٨٤٠م)، وأسست مدينة (كسلا) وجعلت عاصمة له، وتوفي ودُفن بالخرطوم.

أحمد باشا المنكلي ثم خالد باشا

وأُقيم في مكانه «أحمد باشا المنكلي» فأخمد الثورة التي نشبت في بلاد التاكا والتي أثارها سوء إدارة الموظفين، وبقي حكمدارًا للسودان إلى أن عاد إلى مصر سنة (١٨٤٥م)، وخلفه «خالد باشا» وهو آخر من عين حكمدارًا للسودان في عصر محمد علي.

رحلة محمد علي في السودان (١٥ أكتوبر سنة ١٨٣٨– ١٥ مارس ١٨٣٩م)

اعتزم محمد علي أن يرود بنفسه أصقاع السودان ليتعهد شئون الإدارة المصرية فيها، وليبحث عن مناجم الذهب، فسار إليها في (أكتوبر سنة ١٨٣٨م)[1] عن طريق دنقلة. ثم قصد الخرطوم مارًّا بطريق صحراء بيوضة، فبلغها يوم (٢٣ نوفمبر) وأقام بها (٢٢) يومًا قابل فيها الأعيان، وتفقَّد أحوال الإدارة وشئون البلاد، ثم زار ستار وقصد إلى جبال فازوغلي للبحث عن معدن الذهب؛ ولكن البحث لم يفضِ إلى نتيجة يرضاها، فقفل إلى الخرطوم وأقام بها أيامًا قليلة، ثم عاد إلى مصر عن طريق صحراء النوبة من (أبو أحمد) إلى وادي حلفا (مارس سنة ١٨٣٩م) وقضى في رحلته خمسة أشهر.

(١) في عهد حكمدارية أحمد باشا أبو ودان.

وكان يصحبه في رحلته هذه طائفة من المهندسين والباحثين منهم المسيو «ليففر» Lefevre والمسيو «دارنو» D. Arnaud والمسيو «لامبير» Lambert، وقد قضى الأول نحبه أثناء رحلته بحمى أصابته، وظل الأخران يبحثان وينقبان.

ولمناسبة زيارة محمد علي للسودان أمر بإلغاء تجارة الرقيق؛ لما رآه من فظاعة النخاسين (تجار الرقيق) وما يرتكبونه من القسوة في جلب الأرقاء وترحيلهم إلى مختلف الأمصار، وأنفذ رسلًا يعلنون هذا الأمر في جميع البلاد؛ ولكن رغم هذه الأوامر بقي الاتجار بالرقيق ذائعًا إلى أن أبطله الخديوي إسماعيل.

عمران السودان في ظل الحكم المصري

يطيب لبعض الكتاب السياسيين دعاة الاستعمار الإنجليزي أن يرموا الحكم المصري في السودان بكل نقيصة، وينسبوا الحضارة التي دخلت ربوعه إلى الإدارة الإنجليزية، وهي دعوى باطلة تقوم على أساس الإرجاف وتشويه الحقائق.

وفي الحق أن الفضل في حضارة السودان منذ الفتح الأول ثم الفتح الثاني يرجع إلى الحكم المصري، وإلى الدماء المصرية، والسواعد المصرية والجهود والأموال المصرية.

فلنبين في هذه العجالة ما أفاده السودان من الحكم المصري في عهد الفتح الأول؛ أي عهد «محمد علي» حيث يقتصر موضوع الفصل السادس.

ضحى المصريون بأرواحهم ودمائهم في سبيل فتح السودان إقرار سلطة الأمن في ربوعه، فقد بلغ عدد من فقدهم الجيش المصري في الفتح الأول، سواء ممن قتلوا في المعارك أو الرحلات البعيدة الشاقة، أو من اجتاحتهم الأمراض نحو ثلاثة آلاف رجل.

لقد حقق الفتح المصري الوحدة القومية لمصر والسودان، ثم إنه نشر لواء الحضارة والعمران في أصقاعه؛ فقد أسس في البلاد حكومة منتظمة كان لها الفضل

الكبير في بسط رواق الأمن وإقامة قواعد العمران في السودان، ولم ينظر المصري إلى السودان كمستعمرة للاستغلال؛ بل نظر إليه كجزء لا يتجزأ من مصر، فعنى بعمرانه كما يعنى بعمران الغربية أو الدقهلية وسائر مديريات القطر المصري.

تأسيس المدن

كان تأسيس المدن من أول ما عنى به الحكم المصري في السودان، فأنشأ مدنًا زاهرة صارت مبعث الحضارة والتقدم في أنحائه.

الخرطوم

يقول المسيو «ديهران» في كتابه[١]: إنَّ المصريين حينما فتحوا السودان لم يختاروا بلدة من بلاده القائمة -مثل بربر أو سنار أو الأبيض- عاصمة لأملاكهم؛ بل أنشأوا عاصمة جديدة وهي (الخرطوم)، ولم يكن في مكانها قبل الفتح المصري سوى محلة صغيرة للصيادين، ففي سنة (١٨٢٢م) أسس بها معسكر ثابت للجنود. وفي سنة (١٨٣٠م) اتخذها خورشد باشا حكمدار السودان مقرًّا للحكم، فصارت الخرطوم من ذلك الحين عاصمة السودان، وقد اختار لها المصريون هذا الموقع لأهميته؛ حيث يلتقي النيل الأزرق بالنيل الأبيض، وسميت الخرطوم لأن ملتقى النيلين يشبه رأس خرطوم الفيل. قال: وقد أقيمت فيها المباني والعمائر منذ إنشائها، وأهمها سراي الحكومة، وكانت مبنية بالطوب الأحمر، ومؤلفة من دورين، وكان منظرها فخمًا، وسراي مديرية الخرطوم مقر مدير المديرية والموظفين، ومسجدان أحدهما كبير بناه خورشد باشا، والآخر صغير أُقيم من بعده، ودار لإحدى البعثات الدينية المسيحية أنشئت سنة (١٨٤٨م) -أي في أواخر عهد محمد علي[٢]، وأنشئت بها أيضًا ثكنة كبيرة للجنود شرقي المدينة، ومستشفى(٣)، ومعمل للبارود تصنع فيه ذخائر الجيش،

(١) «السودان المصري في عهد محمد علي» ص١١٧.

(٢) هي التي اتخذها «غردون باشا» مستودعًا للذخائر أثناء حصار المهدي للخرطوم.

(٣) ذكره «مانجان» ج٣، ص٤٩٦.

ومخازن للمؤن والمهمات، ثم ترسانة كبيرة كانت تشمل مسبكًا للحديد ومعملًا للنجارة. وفيها بنيت السفن النيلية التي أخذت تنقل الجنود والمتاجر على النيل، ويتخلل تلك العمائر الكبيرة بيوت للسكن، وقد أكسب المدينة موقعها على النيل روعة وجمالًا، وزادتها الحدائق التي أنشأها المصريون حواليها رونقًا ونضرة، وكانت هذه الحدائق تشغل مساحات واسعة من الأراضي، كما أنها موضع عناية القائمين بها، ولها منظر بديع، وكان معظمها يحاذي النيل الأزرق ولا يفصلها عنه إلا رصيف ضيق، وفيها كل ما تنبت الأرض من الحضر والتين والبرتقال والليمون والموز والنخيل والدوم، ويتألف من مجموعها منظر بهيج يدخل السرور في نفوس القادمين[١].

وبعد أن أسست المدينة صارت ملتقى المتاجر القادمة من أنحاء السودان وباطن إفريقية، أو الواردة إليها من مصر والخارج، فازدهر العمران فيها. وصارت محطة من أعظم المدن التجارية في إفريقية، كما أنها صارت مركزًا للرحلات والاكتشافات الجغرافية والعلمية، ومرسى للسفن النيلية التي تنتقل في أنحاء النيل الأزرق والنيل الأبيض.

وتزايد مع الزمن عدد سكانها؛ فقد جاءها الناسُ من مختلف أنحاء السودان كـ«سنار، وبربر، ودنقلة، وشندى وغيرها»، وقدموا إليها للمتاجرة، وأقام فيها الموظفون ورجال الجهادية، فبلغ عدد سكانها في عصر محمد علي ثلاثين ألف نسمة، كما قدرهم المسيو «مانجان» في كتابه[٢]، واستمر عددهم يطَّرد في عهد خلفائه؛ فبلغوا أربعين ألفًا سنة (١٨٥٤م)، وخمسين ألفًا سنة (١٨٥٦م)، وقدرهم الكولونيل «ستوارت» من (٥٠) إلى (٥٥) ألفًا سنة (١٨٨٣م). ثم جاءت الفتنة المهدية فدكت معالم العمران فيها وفي أنحاء السودان.

(١) ديهيران، «السودان المصري في عهد محمد علي» ص١٢٠.

(٢) «تاريخ مصر في حكم محمد علي» جزء٣، ص١٠٨.

مدينة كسلا

وأنشئت أيضًا مدينة «كسلا» التي صارت عاصمة إقليم التاكا -من أهم أقاليم السودان- بل عاصمة السودان الشرقي. ذكر «إبراهيم باشا فوزي» في كتابه[١] أن أحمد باشا أبو ودان حكمدار السودان أسس مدينة (كسلا) وحصَّنها. وقال في موضع آخر: إن كسله اسم مدينة هي عاصمة إقليم التاكا الذي بين محافظتي مصوع وسواكن وحدود الحبشة، وأغلب سكانها مصريون مثل سائر مدن السودان[٢]، وكانت محصنة بسور منيع من الحجارة، وفيه أبراج، ومعدات الدفاع متوفرة فيها منذ دخلت في أملاك الخديوية المصرية على عهد ساكن الجنان محمد علي باشا[٣].

ويقول المسيو ديهيران: إن مدينة كسلا أنشئت على عهد أحمد باشا أبو ودان؛ وذلك أنه أثناء فتح التاكا اتخذ معسكره على نهر (الجاش) بسفح جبل كسلا، ولما غادرها ترك بها حامية ثابتة من الجنود، فأقبل عليها الأهالي المجاورون واتخذوها موطنًا له، وبذلك تأسست كسلا التي صارت من أهم مدن السودان[٤].

فامكه

وكذلك أنشئت مدينة فامكه على النيل الأزرق سنة (١٨٤٠م) في إقليم سنار على بعد (٢٥) ميلًا من الرصيرص جنوبًا، وجعلت عاصمة مديرية فازوغلي. وقد بنى محمد علي باشا على نحو خمسة أميال منها جنوبًا قصرًا ومعملًا لاستخراج الذهب بقيت آثارهما إلى عصرنا الحاضر.

---

(١) «السودان بين يدي غوردون وكتشنر» جزء١، ص٦٥.

(٢) وضع فوزي باشا كتابه بعد استرجاع السودان الأخير، وطبع سنة ١٣١٩هـ (١٩٠١م).

(٣) جزء٢، ص٨٦.

(٤) كتاب «السودان في عهد محمد علي» ص١٠٩.

توطيد دعائم الأمن

مهما اختلف الكتاب الإفرنج في تقديرهم للحكم المصري في السودان على عهد محمد علي، فإنهم مجمعون على امتداحه والاعتراف له بالفضل في بسط رواق الأمن في أصقاعه النائية، كانت الرحلة إليه قبل الفتح المصري محفوفة بالأخطار؛ إذ كانت الطرق مقطوعة، والأمن فيها مضطرب، وسلطة الرؤساء ضعيفة، وكانت قوافل التجار والحجاج تستهدف في كل وقت للسلب والنهب، ولكن الحكم المصري قد قضى على الفوضى الضاربة أطنابها في البلاد وبسط رواق الأمن عليها.

قال المسيو «ديهيران» في هذا الصدد: إن ما قام به محمد علي من بسط رواق الأمن في مصر هو من أجل أعماله كما يرى المستر «بورنج»[1] في تقريره عن مصر، وهذا الرأي يجب تعميمه ليشمل كل بلد حكمها محمد علي؛ فحيثما بسط نفوذه وحكمه نهض بالأمن ووطد دعائمه وصانه بعين رعايته، وعلى العكس إذا تقلص نفوذه عادت البلاد إلى الفوضى واختل الأمن فيها؛ خذ لذلك مثلًا أنه لما انسحبت قواته من الحجاز سنة (١٨٤١م) واستردها سلطان تركيا شعر التجار بأنهم لم يعودوا آمنين على متاجرهم هناك، وكذلك لما جلا إبراهيم باشا عن سورية اضطرب فيها جبل الأمن وعادت الفتنة بين المسلمين والمسيحيين. أما البلاد التي يسود فيها حكم محمد علي فإن الإنسان يأمن على نفسه أن يذهب إلى أي ناحية بها، ويقول الكونت «بنديتي» Benedtti –قنصل فرنسا في مصر–: إنَّ الأهالي والأجانب على السواء يستطيعون أن يذهبوا إن شاءوا في البلاد التي يحكمها محمد علي، سواء أكان ذلك في وادي النيل إلى أقاصي حدود السودان، أم في سورية وجزيرة العرب؛ فإن صرامة العدل الذي أقام ميزانه في كل ناحية لا تقبل هوادة ولا ضعفًا، فالسودان قد ساده الأمن كما ساد غيره من البلاد التي حكمها. ففي كردفان مثلًا حيث لم يكن أي تاجر يأمن على نفسه أن يسير منفردًا استطاع الرحالة «بالم» Pallme أن يجتاز البلاد من غير أن يصحبه إلا خادم

(١) سياسي إنجليزي ساح في مصر على عهد محمد علي، وله عنها تقرير واف.

واحد، ولم يقع عليه أي اعتداء أو أذى. كذلك ساح فيه الرحالة «كوتشي» Kotchy مطمئنًا سنة (١٨٣٩م)، وساح الأمير الألماني «بكلر موسكو» Muskau في السودان إلى الخرطوم دون أن يناله سوء، وجاءت عائلة المسيو «ملي» Melly إلى الخرطوم سنة (١٨٥٠م) للنزهة، كما لو ساحت في ربوع إيطاليا[١].

وقد كان من نتائج بسط الأمن في السودان وتأمين طرقه نشاط المعاملات التجارية في أنحائه وبينه وبين مصر وباطن إفريقية.

ومن نتائجه تنظيم البريد، وقد جعلت الخرطوم مركزًا له، وكان ينقل في السفن ثم يحمل على الهجن فيرسل إلى مصر وجميع مديريات السودان، وله في الطريق محطات تستريح فيها الهجن وتبدل، وكانت الرسائل تصل من مصر إلى الخرطوم مرتين في الشهر، وتقطع المسافة بينهما في خمسة وعشرين أو ثمانية وعشرين يومًا، وكان البريد يروح ويغدو ويجتاز تلك المراحل الشاسعة دون أن تنقطع عليه الرحلة. قال المسيو «جومار» في هذا الصدد: «من ذا الذي كان يظن قبل أربعين عامًا قبل خمسة عشر عامًا فقط أن تصلنا الرسائل من ضفاف النيل الأبيض إلى ضفاف السين (النهر الذي يمر بباريس) في اثنين وثلاثين يومًا، وتصلنا من قزنفور (جنوبي فازوغلي) عند الدرجة العاشرة من خط الاستواء في خمسين يومًا؟»[٢].

الزراعات وأعمال العمران الأخرى

وأدخل المصريون في السودان الزراعات المصرية كالقمح والخضر، وغرسوا فيها أشجار الفاكهة المختلفة أنواعها كالبرتقال والليمون والرمان والعنب، ونسقوا الحدائق الغناء.

---

(١) ديهيران، ص٢١٥.

(٢) «مانجان» الجزء الثالث، ص٤٨١.

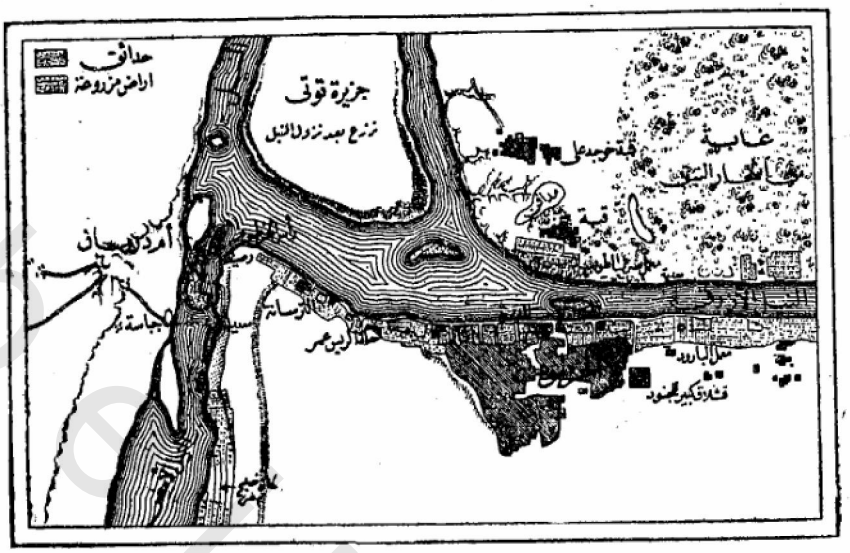

خريطة الخرطوم فى عهد محمد على باشا
كما رسمها المهندس الفرنسى دارنو الذى أقام بالسودان من سنة ١٨٣٨ إلى سنة ١٨٤٢

قال الكولونيل «ستوارت» Stuart في هذا الصدد: «إن المصري يميل بطبعه ميلًا شديدًا إلى الزراعة، ففي السودان -وفي أي مكان يعسكر الجنود المصريون- لا يمضي على إقامتهم ستة أشهر حتى يكون من المحقق أن ينبت فيه الزرع الأخضر».

ومن أعمال العمران التي تمَّت في عهد محمد علي بناء ديوان للمديرية في مدينة (سنار) وثكنة للجنود وجامع بها، وما قام به خورشد من أعمال الإصلاح التي تقدم الكلام عنها.

وقد أمر محمد علي باحتفار الآبار في الطريق بين كروسكو وأبو حمد، وهو طريق شاق يخترق صحراء النوبة ويجتازه المسافر في تسعة أيام، فأمر بإصلاحه وحفر الآبار فيه تسهيلًا للمواصلات بين مصر والسودان.

الحملات والبعثات الجغرافية

إن للفتح المصري فضلًا كبيرًا على العلم والعمران بما شجع العلماء ورواد الكشف والاستطلاع على الرحلات العلمية لاكتشاف أصقاع السودان النائية، وخاصة منابع النيل، وقد كان لمحمد علي عناية كبيرة بتعضيد الاكتشاف وتشجيع الباحثين والعلماء على الرحلة إليها، وشملهم برعاية الحكومة، وعهد إلى جنده حمايتهم في رحلاتهم، ولولا تلك المساعدات لما استطاعوا أن يسيروا خطوة في تلك الجهات، وقد صارت مدينة الخرطوم مركزًا للرحلات الجغرافية التي سارت منها لاكتشاف منابع النيل وأواسط إفريقية، ولعلك تلحظ دلائل عناية محمد علي بأعمال الكشف والتنقيب مما رأيته من اصطحاب ابنه إسماعيل باشا بعض المهندسين مثل المسيو «فردريك كايو» أثناء فتح السودان كما تقدم بيانه، ومن أن محمد علي ذاته قد رحل إلى السودان يجوب أنحاءه ويتفقه معادنه، وقد اصطحب في رحلته بعض المهندسين والباحثين. ثم إنه لما عاد من رحلته تولى بنفسه تنظيم البعثات والحملات الجغرافية البعيدة المدى للكشف عن منابع النيل، فللحكم المصري في السودان فضل كبير على الاكتشافات الجغرافية التي تمت في عهده وبإرادته. وهذه الاكتشافات ذاتها قد مهدت السبيل للرحلات التي جاءت من بعده إلى أن تم اكتشاف منابع النيل بأكملها، ولئن كان تمام اكتشافها في سنة (١٨٥٨ و١٨٦٠ و١٨٦٢م) حينما انتهى الرحالتان (اسبيك) و(جرانت) إلى بحيرة فيكتوريا نيانزا وشلالات ريبون، فلا نزاع أن الرحلات والتجاريد في عهد محمد علي قد عبَّدت الطريق للمكتشفين وأنارت لهم السُّبل وفتحت بلادًا ومناطق لم يكن في مقدروهم أن يجوبوها لو لم يبسط الحكم المصري رواق الأمن في أنحائها، فالفتح المصري فضلًا عن نتائجه القومية قد ساعد العلم والحضارة مساعدة كبرى من تلك الناحية، وقد كان العامل الأول في الرحلات التي تمت في عهد محمد علي اتجاه فكره وفكر أبنائه إلى اكتشاف منابعه التي كانت إلى ذلك العهد مجهولة لعلماء الجغرافية.

قال المسيو «ديهيران» في هذا الصدد: إن محمد علي بإنفاذه الرحلات والبعثات لاكتشاف منابع النيل قد حقق الأمل الذي كان يطمح إليه علماء الجغرافية وكافة رجال العلم في عصره[١].

وقال عن إبراهيم باشا: إنه كان شديد التطلع إلى تحقيق هذه الغاية، وقد أفضى برنامجه إلى المسيو «كايو» حينما قابله يوم (٢٤ أكتوبر سنة ١٨٢١م) فقال له: «إننا سنكشف النيل الأبيض في حملة من مراكب مسلحة وعدد كبير من القوارب الخفيفة التي تستطيع أن تمضي في النهر بسهولة دون أن تعترضها الشلالات، وستكون وجهة هذه العمارة النيلية أن تنحدر في النهر وروافده حتى تصل إلى منابعه».

وكان إسماعيل باشا ابن محمد علي يطمح أيضًا إلى ما كان يفكر فيه أخوه إبراهيم، فقد قال للمسيو «كايو» حينما استأذنه في العودة إلى مصر (٨ فبراير سنة ١٨٢٢م): «إذا ذهبت إلى فرنسا فانشر ما وصلت إليه من المعلومات، ثم عُدْ إلى مصر فإنك ستجد أبي لا يقنع بالاكتشافات الضئيلة التي وصلنا إليها؛ بل سنبذل جهودًا أخرى، وسأصحبك بنفسي إلى منابع النيل الأبيض».

وقد شجع محمد علي الرحلات الجغرافية في حوض النيل من يوم أن بسط نفوذه في السودان، فساح فيه الرحالتان «هاي» Hay و«هوشت» Hocht ووصلا سنة (١٨٢٤م) إلى ما يلي رأس الخرطوم جنوبًا، وفي سنة (١٨٢٧م) انحدر المسيو «لينان دي بلفون» (لينان باشا) في النيل إلى ما يلي الخرطوم، وفيما بين سنة (١٨٢٨ و١٨٣١م) ساح فيه إبراهيم كاشف ونزل النيل الأبيض ووصل إلى بلاد الشلوك والدنكا قريبًا من بحر الغزال.

(١) «السودان المصري في عهد محمد علي» ص١٢٨.

حملات البكباشي سليم بك قبطان

ولما ساح محمد علي في السودان كان معتزمًا أن ينفذ الحملات والتجاريد لاكتشاف منابع النيل الأبيض، فعهد بهذه المهمة إلى البكباشي المصري «سليم بك قبطان» أحد ضباط البحرية المصرية، وجعل تحت تصرفه قوة من الجنود وعمارة نيلية من المراكب.

فاضطلع البكباشي سليم قبطان بهذه المهمة، وقام بثلاث حملات متعاقبة كانت موضع إعجاب علماء الجغرافية ورواد الاكتشاف.

الحملة الأولى

تحركت الحملة الأولى من الخرطوم يوم (١٦ نوفمبر سنة ١٨٣٩م) برئاسة سليم بك قبطان، يصحبه سليمان كاشف أحد ضباط الجيش المصري ورجل فرنسي اسمه المسيو «تيبو» Thibaut كان يتسمى باسم «إبراهيم أفندي». وتتألف قوة الحملة من (٤٠٠) جندي اختيروا من جنود الألاي والألاي الثامن المرابطين وقتئذ في سنار، وكانت العمارة التي أقلت الحملة مؤلفة كما يقول سليم بك[١] من ثماني ذهبيات مسلحة كل وحداة بها مدفعان، ومركبين آخرين و(١٥) قاربًا، وبها من الذخائر والمئونة ما يكفي الحملة لمدة ثمانية أشهر، وقد وصلت الحملة إلى بلدة (العبس) جنوبي الخرطوم[٢].

ثم حالت الموانع في النهر دون تقدم العمارة، فعادت إلى الخرطوم، وفي عودتها عرجت بنهر سوباط أحد روافد النيل لاكتشافه، وانحدرت فيه (١٦ فبراير، ٦ مارس سنة ١٨٤٠م) إلى أن حالت قلة المياه دون تقدمها، فرجعت إلى الخرطوم وبلغتها يوم (٣٠ مارس سنة ١٨٤٠م) بعد أن دامت رحتلها (١٣٥) يومًا.

---

(١) مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية، عدد يولية سنة (١٨٤٢م) ص٨، رسالة البكباشي سليم بك.

(٢) انظر: موقعها على الخريطة الملحقة بهذا الفصل.

وقد وضع البكباشي سليم قبطان رسالة ضمَّنها تفاصيل هذه الحملة، وألحق بها جدولًا بالأرصاد الجوية التي قيدها، فكانت هذه الرسالة أول مرجع رجع إليه العلماء في اكتشاف باطن إفريقية، وقدمت هذه الرسالة إلى الجمعية الجغرافية الفرنسية بباريس بواسطة المسيو «جومار» رئيس البعثة المصرية بفرنسا، ونشرت في مجلة الجمعية الجغرافية (أعداد يولية وأغسطس وسبتمبر سنة ١٨٤٢م)، فحازت إعجاب علماء الجغرافية بفرنسا، ومهد لها المسيو «جومار» بمقدمة أثنى فيها على همة سليم بك قبطان، وقال فيها:

«إن هذه الحملة المؤلفة من (٤٠٠) رجل بقيادة ضابط مصري وغايتها الاكتشافات الجغرافية هي أول حملة من نوعها، والتقرير المدون به يوميات الحملة محرر بالأوضاع التي يحررها الرحالة الأوربيون، ولا جرم أن هذه الرحلة هي إحدى ثمرات الحضارة التي دخلت مصر منذ ربع قرن».

الحملة الثانية

تحركت الحملة الثانية من الخرطوم يوم (٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٠م) بقيادة سليم قبطان، يصحبه أيضًا سليمان كاشف قائد القوة البرية، وصحبه من الأوربيين المهندسان الفرنسيان «دارنو» Darnaud و«ساباتيه» Sabatier والرحالة الألماني «فرن» Verne والمسيو «تيبو» المتقدم ذكره.

وقد سارت الحملة في النيل الأبيض، وتخطت الجهة التي بلغتها الحملة الأولى، ثم مضت في سبليها حتى بلغت يوم (٢٥ يناير سنة ١٨٤١م) جزيرة (جونكر) الواقعة على الخط الخامس من خطوط العرض[١]، فتكون الحملة قد اجتازت نهاية الحملة الأولى بمراحل شاسعة. والمعلوم أن جزيرة (جونكر) تقع تجاه (غندكرو) التي تبعد عن الخرطوم نحو (١٠٨٠) ميلًا جنوبًا، فهي قريبة من البحيرات التي ينبع منها النيل،

(١) انظر موقعها على الخريطة.

وقد صارت غندكرو وقتًا ما عاصمة مديرية خط الاستواء في عهد الخديوي إسماعيل[١].

ولم يبق بين الحملة وبلوغ منابع النيل إلا مرحلة وجيزة بالنسبة لما قطعته من المراحل؛ ولكنها لم تستطع متابعة سيرها لهبوط مياه النيل جنوبي هذه الجهة، ولوجود الجنادل والشلالات التي تحول دون تقدم السفن في ذلك الجزء من النيل، ولا تزال هذه العقبات تعطل المواصلات النيلية في هذه الجهة إلى عصرنا الحاضر، فاستقر الرأي على العودة إلى الخرطوم، وفي عودتها عرجت أيضًا بنهر سوباط، فسارت فيه إلى أن تعذر المسير فرجعت وتابعت سيرها إلى الخرطوم فبلغتها في (١٨ إبريل سنة ١٨٤١م).

وللمسيو «دارنو» رسالة عن هذه الرحلة نشرت في مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية (عدد نوفمبر سنة ١٨٤٢م) ثم طبعت على حدة.

الحملة الثالثة

تحركت الحملة الثالثة من الخرطوم يوم (٢٧ سبتمبر سنة ١٨٤١م) بقيادة سليم قبطان ذاته، وكان سيرها بطيئًا لمعاكسة الريح، وأصيب بعض البحارة والجنود بالأمراض ومات بعضهم في الطريق، على أنها تابعت سيرها، ولكنها لم تتجاوز النقطة التي بلغتها الحملة السابقة وعادت إلى الخرطوم يوم (٦ مارس سنة ١٨٤٢م).

وكان محمد علي ماضيًا في إنفاذ فكرته، معتزمًا أن يستأنف حملات الاستكشاف حتى يصل إلى منابع النيل، ويبسط نفوذ مصر في تلك الأصقاع، ولكن المرض الذي انتابه في أواخر عهده بالحكم حال دون إتمام قصده. على أن هذه الحملات الثلاث قد أدركت نتائج عظيمة. ولو أن البكباشي سليم قبطان قام بهذه الجهود في بلد أوربي ووصل إلى هذه النتائج لقدرت له أُمته بطولته وخدماته حق قدرها، ولشادت بذِكْره،

(١) قبل أن تصير مدينة (لادو) عاصمة لها.

وعاونته، وكافأته، وشجعته بمختلف وسائل التعضيد، وبذلك تشحذ الأمم عزائم أبنائها ويكثر فيهم العلماء والمكتشفون والنوابغ في كل علم وفن؛ أمَّا في مصر فقلما تحفل بهم الأمة والحكومة، فلا جرم أن تضمحل العزائم ويتعثر التقدم القومي في سيره.

اكتشفت هذه الحملات بلادًا ومناطق كانت إلى ذلك الحين مجهولة، ولم يطرقها من قبل سائح أو مكتشف، ودرست جغرافيتها، وعرفت أحوال سكانها ونباتها وأشجارها ومناخها وحيوانها، فأفادت الحضارة والعلم فوائد جمَّة، ثم إنها بسطت في طريقها نفوذ مصر، فخفقت الراية المصرية لأول مرة في تلك الأصقاع النائية، تحمل في طياتها رمز الحضارة والتقدم، فلا غرو أن كان لهذه الحملات فضل كبير من الوجهة القومية. ولقد مهدت السبيل للحملات التي نظمها الخديوي إسماعيل، فأكمل العمل الذي قام به محمد علي، ووصل بحدود مصر إلى منابع النيل.

حدود السودان المصري في عهد محمد علي

إنَّ حدود مصر الجنوبية قبل الفتح الأول للسودان كانت تنتهي إلى جزيرة (ساي) جنوبي وادي حلفا، فرقعة مصر كانت إذن أوسع مما تقرره الحدود الحالية، تلك الحدود الباطلة التي تجعل حدها الجنوبي شمالي وادي حلفا. (انظر الخريطة ص١٧١).

وبفتح السودان في عهد محمد علي انضمت الأقاليم السودانية إلى حظيرة الوطن، ووصلت حدود السودان المصري شرقًا إلى البحر الأحمر، فقد فتحت الجنود المصرية سنة (١٨٤٠م) إقليم التاكا (كسلا) الواقع بين نهر عطبرة والبحر الأحمر؛ أي السودان الشرقي. وجعلت مدينة كسلا عاصمة له كما تقدم بيان ذلك. وكان لفتح هذا الإقليم أهمية كبيرة لخصوبة أرضه وكثرة مراعيه، ولكونه صلة الاتصال بين السودان وثغرى سواكن ومصوع.

وفتحت الجنود المصرية أيضًا (القضارف) بالقرب من حدود الحبشة و(القلابات) الواقعة على شاطئ نهر عطبرة بالقسم الجنوبي من إقليم التاكا، فوصلت إلى حدود الحبشة شرقًا.

وكذلك دخلت سواكن ومصوع في حدود السودان المصري، فقد استأجرهما محمد علي باشا من سلطان تركيا؛ إذ كانتا من قبل من أملاك السلطنة العثمانية القديمة، فلما رأى محمد علي ضرورتهما للسودان لأنهما منفذاه على البحر الأحمر وخاصة لإقليم التاكا استأجرهما من السلطان إيجارًا دائمًا مقابل مبلغ سنوي قدره (٥٠٠٠) كيس أي (٢٥٠٠٠) جنيه، وبذلك دخلنا تحت ظل الحكم المصري منذ عهد محمد علي.

أمَّا من جهة الجنوب فقد بلغت الحملات والتجاريد التي أنفذها محمد علي في النيل الأبيض إلى جزيرة (جنوكر) تجاه (غوندكرو) كما أسلفنا، فإلى تلك النقطة ينتهي الفتح الأول للسودان، ولم يتعدَّها لعدم تخطي الاكتشافات الجغرافية هذه الجهة؛ فالفتح الأول قد جعل من النيل نهرًا مصريًّا إلى آخر نقطة وصل إليها الاكتشاف الجغرافي في ذلك العصر.

أمَّا ما يلي (جونكر) جنوبًا -وهو الإقليم المعروف بمديرية خط الاستواء وأوغنده، ويشمل منطقة البحيرات- فقد فتحته مصر في عهد الخديوي إسماعيل.

ومن جهة الغرب قد شمل الحكم المصري كردفان، أما سلطنة (دارفور) فلم تفتح إلا في عهد إسماعيل باشا؛ ولكنها دخلت رسميًّا في أملاك مصر على عهد محمد علي، وذلك بمقتضى فرمان (١٣ فبراير سنة ١٨٤١م) الذي أسند إليه ولاية أقاليم السودان، وهي كما وردت في الفرمان المذكور: «النوبة، ودارفور، وكردفان، وسنار وجميع توابعها وملحقاتها».

ولم تكن دارفور قد فتحت بعد؛ فإصرار محمد علي باشا على دخولها في الفرمان دليل على أنه يعدها من أملاك مصر الطبيعية، وغير خاف أن هذا الفرمان قد صدر

بتصديق الدول، فامتلاك مصر للسودان قد حاز الصفة الرسمية والدولية فضلًا عن الحق الطبيعي والصبغة القومية.

ولو كان محمد علي ضاعف عنايته بإكمال فتح السودان إلى منابع النيل، وبذل في تثبيت ملكه ونشر لواء الحضارة والعمران فيه ما بذله في حروب سورية والأناضول، لوطد دعائم الوحدة القومية بالوصول إلى منابع النيل، فإن الحدود الطبيعية لمصر والسودان هي وادي النيل وملحقاته من البحر الأبيض شمالًا، إلى البحر الأحمر شرقًا، وصحراء ليبيا غربًا، وإلى منابع النيل والأقيانوس الهندي جنوبًا.

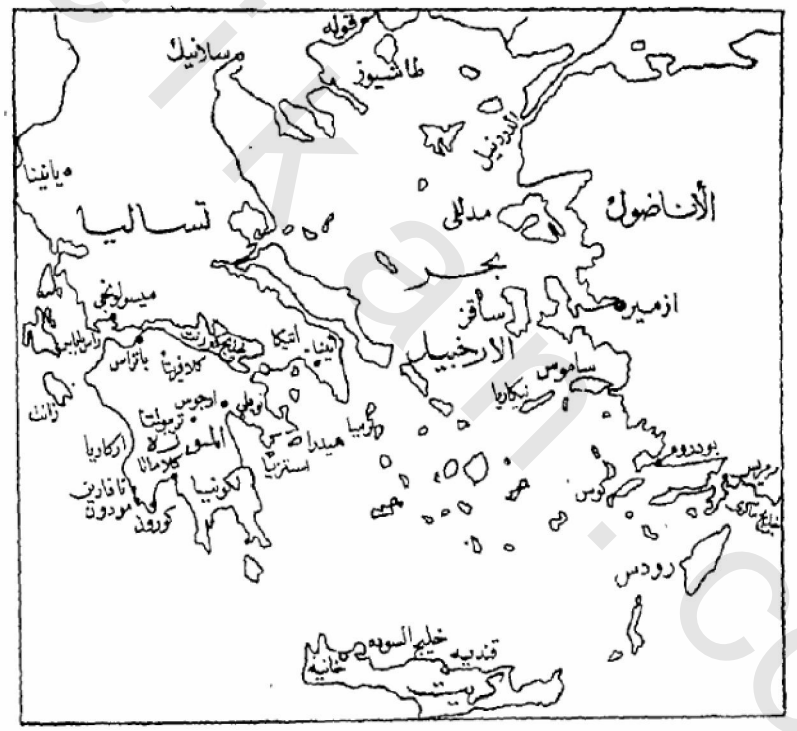

خريطة حرب اليونان وفيها بيان المواقع التي ورد ذكرها في الفصل السابع